

الكتابات اللسانية الوصفية ونقد النظرية النحوية العربية

Descriptive Linguistic Writings and Criticism of the Arabic Syntactical Theory

صفاء مريم غدوي *

صالح بوترة

جامعة -أم البواقي- (الجزائر)

جامعة -أم البواقي- (الجزائر)

مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي

مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي

في النظام التعليمي الجزائري -الواقع والمأمول-

في النظام التعليمي الجزائري -الواقع والمأمول-

ghedoui.safameriem@univ-oeb.dzbouteraa05@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025-04-10

تاريخ القبول: 2025-06-01

ملخص:

لقد شكل القرن العشرون منعطفًا حاسمًا في تكوين الفكر العربي الحديث ، حيث شهد هذا الأخير انفتاحًا على الحضارة الغربية و ما نتج عن هذا الانفتاح من وعي في الفكر اللغوي العربي يدعو إلى ضرورة تغيير الأوضاع اللغوية و مواكبة التطور الحاصل في الغرب ، و نتيجة لهذا الواقع الجديد الذي ميز الثقافة اللغوية العربية فقد ظهرت في البيئة العربية محاولات تدعو إلى إعادة النظر في الموروث اللغوي العربي عامة و النحوي منه بشكل خاص و قد مثل هذه المحاولات أغلب اللسانيين العرب الذين تأثروا بالمنهج البنيوي الوصفي و انساقوا وراء إجراءاته و انساقوا جعلهم ينتقدون النظرية النحوية العربية ، و ذلك لتسوية مشروعية خطابهم اللساني من جهة ، و اقتراح أنموذج لساني جديد لوصف اللغة العربية من جهة ثانية .

وانطلاقًا من هذا الطرح سنسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على جهود الوصفيين العرب في نقد و تقويم التراث النحوي العربي منطلقين في هذه الدراسة من إشكالية رئيسة مفادها:

- كيف تعاملت الكتابات اللسانية العربية ذات المنحى الوصفي مع التراث النحوي العربي؟

- ماهي السمات النظرية والمنهجية لهذا التعامل؟

الكلمات المفتاحية: كتابات لسانية عربية حديثة؛ لسانيات بنيوية وصفية؛ تراث لغوي عربي؛ نحو عربي؛ نقد لساني.

Abstract:

The twentieth century represented a crucial turning point in the construction and establishment of modern Arab thought, which witnessed an openness to Western civilization and the awareness that resulted in the development of a new Arabic linguistic thought that called for the necessity of changing linguistic conditions and keeping pace with the development taking place in the West. As a result of this new reality, which distinguished the Arabic linguistic culture from other linguistic traditions, novel attempts had appeared in the Arab environment to support a reconsideration of the Arabic linguistic heritage in general and its grammatical heritage in particular. These attempts were represented by most of the Arab linguists who were, methodologically and theoretically, influenced by the descriptive structural approach. Therefore, many of them criticized the Arabic grammatical theory to justify the legitimacy of their linguistic discourse on the one hand, and to suggest a new linguistic model that can, at best, describe the Arabic language, on the other.

Based on the aforementioned issues, we will set the task to focus on the efforts of Arabic descriptivist linguists in the criticism and evaluation of the Arabic grammatical legacy. In essence, this research study seeks to answers the following questions:

How did Arabic linguistic writings with a descriptive orientation deal with the Arabic syntactical heritage?

What are the essential theoretical and methodological aspects of this approach?

keywords:

Modern Arabic linguistic writings, descriptive structural linguistics, Arabic linguistic heritage, Arabic syntax, linguistic criticism.

مقدمة:

إن اللسانيات العربية الحديثة في عمومها وليدة احتكاك حضارتين مختلفتين ، الحضارة العربية ممثلة بتراث لغوي عربي ثري و الحضارة الغربية ممثلة في مناهج لسانية غربية متطورة ، وقد ولّد هذا الاحتكاك فرعاً هاماً من فروع البحث اللساني العربي الحديث يمكن أن نطلق عليه مجازة للدكتور مصطفى غلفان " لسانيات التراث " ؛ حيث سعى أصحاب هذا الاتجاه من خلال أعمالهم اللسانية إلى ربط مضامين تراثنا اللغوي العربي بمعطيات علم اللغة الحديث في إطار ما يسمى بإعادة قراءة التراث اللغوي العربي في ضوء

المناهج اللسانية الغربية الحديثة ، و من بين المناهج التي اعتمدها اللسانيون العرب أداة لسانية علمية لمحاورة التراث اللغوي العربي *المنهج البنيوي الوصفي* ، فقد كان اطلاع الدارسين العرب على ما حققته اللسانيات الوصفية من قدرة على وصف اللغات وتحليلها وضبط قوانينها الأثر الكبير في الاحتكام إلى تصوراتها في نقد بعض جوانب التراث اللغوي العربي ، قصد أن يحققوا نهضة لغوية قادرة على إعادة بعث الحياة في التراث اللغوي عامة والنحوي منه بشكل خاص ، فعمدوا إلى إعادة النظر في قضايا نحوية تراثية عديدة قصد تقويمها أو إلغائها إلغاء تاما و اقتراح البديل في ضوء ما أفرزه الخطاب اللساني الغربي الحديث.

وبناء على ذلك يمكن طرح التساؤلات التالية:

- ما هي أهم جوانب النقد التي ركز عليها الوصفيون العرب في نقدهم للنحو العربي؟
- وما هي المقترحات التي ارتضوها بديلا؟
- وإلى أي مدى وفقوا في تقويم النظرية النحوية العربية؟

1- الإرهاصات الأولى لظهور اللسانيات الوصفية في العالم العربي:

لقد بدأت الإرهاصات الأولى لظهور اللسانيات الوصفية في مطلع القرن العشرين ، و تحديدا مع ما قدمه اللساني السويسري " فيرديناند دي سوسير " الذي يعد أول من نظّر لهذا المنهج الجديد في دراسة اللغة من خلال محاضراته الشهيرة (دروس في اللسانيات العامة) ، والتي عدت تأسيسا لمرحلة جديدة مغايرة لتصورات الدارسين السابقين للغة ، ومثلت حجر الزاوية ونقطة انطلاق علم اللغة الحديث الذي استقرت دعائمه بداية فيما يسمى بالمنهج البنيوي الوصفي؛ الذي يعنى بوصف اللغات وتحليلها كما هي موجودة في نقطة معينة من الزمن ، وقد عرف هذا الأخير طريقه إلى ثقافات عديدة وقد كان للثقافة العربية نصيب منه ؛ حيث انتقل المنهج البنيوي الوصفي إلى الثقافة العربية في فترة اتصال العرب بالغرب عن طريق البعثات الطلابية التي كانت منطلقا لبلورة هذا الاتجاه في العالم العربي.

وعليه فقد بدأت بواكير المنهج البنيوي الوصفي في العالم العربي منذ أواخر الأربعينات ؛ أي بعد أن بدأ المبعوثون إلى جامعات الغرب يعودون إلى بلدانهم حاملين معهم الأفكار

للسانوية الغربية من أجل تطبيق مبادئها على اللغة العربية ، و يؤرخ لهذه البداية بعودة إبراهيم أنيس عام 1941م من الجامعة الغربية والذي تعد محاولته أول محاولة عربية لوصف أصوات العربية وصفا جديدا، أفاد فيها من جهود القدماء والمحدثين كليهما وهذا ما يتجلى واضحا في مؤلفه المعنون بـ " الأصوات اللغوية " ، كما ألف الباحث كتابا آخر وسمه بعنوان " في اللهجات العربية " بين فيه وجوب البدء في دراسة اللهجات بالدراسة الوصفية بعيدا عن المقارنات .

وقد ترسخ هذا المنهج الوصفي في ثقافتنا اللغوية العربية بفضل الجهود التي أعقبت د. إبراهيم أنيس متجلية في جهود تلامذته، وجهود بعض العائدين من المدرسة نفسها، ومن أبرز هؤلاء: د. تمام حسان ود. كمال بشرو د. عبد الرحمان أيوب، ود. محمود السعران، وغيرهم ممن كونوا جيلا يمكن أن نصفه جيل الوصفيين العرب؛ الذين شكلوا مرحلة أولى لتطبيق المنهج الوصفي على اللغة العربية، وقد مر هذا التطبيق عبر المراحل التالية¹ :
أولا، حاول بعض اللغويين العرب أول الأمر التعريف بالمبادئ والأفكار اللسانية الجديدة، على نحو ما نجد عند د. إبراهيم أنيس والسعران وتمام حسان وغيرهم من كبار اللسانيين العرب الذين ألفوا أيضا للتعريف باللسانيات
ثانيا؛ قام لسانيون آخرون بالدفاع عن الفكر اللساني الغربي الحديث مبينين إيجابياته نظريا ومنهجيا، مقارنين بينه وبين الفكر اللغوي العربي القديم، وانطلاقا من هذا التباين بين الفكرين بدأت بعض الأصوات تجهر بالدعوة إلى ضرورة إعادة النظر في التراث اللغوي العربي والنحوي منه خاصة، وإدخال هذا الأخير في جدل خصب مع مفاهيم ومبادئ المنهج البنوي الوصفي.

2- الوصفية ونقد النظرية النحوية العربية:

لقد كان المنهج الوصفي -كما سبق الذكر- تحولاً في دراسة اللغة ، فقد تركزت عناية الوصفيين على تحويل مسار الدراسات اللغوية نحو دراسة اللغة دراسة علمية موضوعية من خلال التعامل مع اللغة تعاملًا مباشرًا بوصفها كيانا مستقلا من العلاقات الداخلية، و بذلك تكون الدراسة الوصفية أساس كل بحث لدراسة اللغة بشكل موضوعي بحسب

¹ -ينظر: غلفان مصطفى، (د.ت)، اللسانيات العربية الحديثة - دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية - جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب، ص: 175- 176.

الوصفيين ، ولذلك فقد كان منطلق الوصفيين في الغرب نابعا من قناعة مفادها أن دراسة اللغة على أساس المنهج الوصفي فرض بالضرورة تجاوز النحو التقليدي الأوروبي، وانتقاد المبادئ التي قام عليها هذا النحو، حيث وجد الوصفيون الغربيون في إبراز نقائص النحو التقليدي منفذا لتوطيد أفكار منهجهم اللساني الجديد ، ومسوغا لجعله بديلا عن المناهج السالفة له .

ومن أهم جوانب النقص التي رآها الوصفيون الغربيون في النحو التقليدي الأوروبي نذكر:¹

1. تحديد قواعد اللغة بناء على فهم المعنى وهذا يعني أن القواعد تتحدد تبعا للدارس نفسه، مما يجعل النحو ذاتيا، هذا في الوقت الذي يجب أن يكون فيه موضوعيا، والموضوعية لا يمكن أن تكون إلا بالتركيز على الجوانب الشكلية لسهولة رصدها ووصفها.
2. التركيز على التعليل في جوانب التفسير والمفروض أن نفس بناء على ملاحظتنا.
3. اهتم النحو التقليدي ب "الجملة الخبرية" في البحث اللغوي، وانطلق منها باعتبارها أساسا في تحديد أقسام الكلم مما تسبب في تهميش أنماط أخرى، واعتبارها أشكالا "منحرفة"، وهذا أمر غير مقبول لأن تناول الصحيح يقتضي التدقيق في كل "النطوق اللغوية" دون تمييز.
4. أن النحو التقليدي لم يميز بين " اللغة المنطوقة " و " اللغة المكتوبة "، وهو تمييز ضروري لاختلاف نظامهما.
5. الخلط بين مستويات التحليل، وعدم التمييز بين ما هو صوتي وما هو صرفي أو نحوي ...

كانت هذه بعض جوانب النقص في النحو التقليدي الأوروبي كما حددها الوصفيون الغربيون، وقد فسروا هذه النقائص بتأثر النحو بالمنطق الأرسطي واهتمامه بالتعليل والتقدير والتأويل، وهي جوانب – في نظرهم – بعيدة كليا عن الدراسة اللغوية الموضوعية.

¹ - ينظر: علوي حافظ إسماعيل، (2009م)، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة-دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته-، ط: 01، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ص: 225-226.

و حين انتقل المنهج الوصفي إلى ثقافتنا العربية بعد اتصال أسانذتنا وباحثينا به في الغرب بدأت هذه الانتقادات التي أخذها الوصفيون الغربيون على نحوهم التقليدي تظهر في معظم المؤلفات الحديثة للسانيين العرب الذين تأثروا بهذا الاتجاه الوصفي في دراسة اللغة، حيث اعتمد الوصفيون العرب في نقدهم للتراث النحوي العربي المنطلقات والأسس النظرية و المنهجية التي اعتمدها الوصفيون الغربيون في نقدهم لنحوهم التقليدي ، و ربطوا نقدهم للنظرية النحوية العربية بالنظرية اللسانية الغربية التي اتخذوا منها مرجعا في عملية النقد، على نحو ما نجده عند د. تمام حسان في كتابه الموسوم بـ " اللغة بين المعيارية و الوصفية " الذي حاول فيه نقد منهج النحاة العرب، وسعى إلى تقديم منهج بديل مستمد من التفكير اللغوي الحديث و في هذا الصدد يقول: (لهذا فكرت في أمر الدراسات العربية القديمة من حيث المنهج لا من حيث التفاصيل ، وجعلت تفكيري في أمرها مستضيئا بمناهج الدراسات اللغوية الحديثة)¹

وفي سياق غير منفصل نشير إلى كتاب "دراسات نقدية في النحو العربي" للدكتور عبد الرحمان أيوب الذي وصف نقده للنظرية النحوية العربية بأنه (تمهيد ضروري لثورة عقلية لابد من نضوجها قبل أن ينفتح ذهن الجيل الجديد إلى البحث اللغوي الموضوعي)² كما يعد د. كمال بشر من أبرز الباحثين الذين تعرضوا بالتحليل النقدي لتراثنا النحوي العربي و ذلك في كتابه الموسوم بـ " دراسات في علم اللغة " ، حيث أقر من خلال هذا الكتاب أن علماء العربية قد وقعوا في أخطاء منهجية عديدة لا يقرها البحث الحديث ، و في هذا يقول : (يبدا أن علماء العربية لم يدركوا تمام الإدراك مدى العلاقة و الارتباط بين فروع الدراسات اللغوية ، أو مسائل اللغة المختلفة في عمومها ، ومن ثم نراهم ينظرون إلى هذه الفروع و المسائل كما لو كانت منفصلة بعضها عن بعض لا يضمها إطار عام مشترك يوحي بوحدتها و انتظامها جميعا تحت موضوع رئيسي واحد)³

¹ - تمام حسان، (2000م)، اللغة بين المعيارية والوصفية، ط4، عالم الكتب، القاهرة، ص:11.

² - عبد الرحمان أيوب، (1957 م)، دراسات نقدية في النحو العربي، ط:01، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ص: 01.

³ - بشر كمال، (1986م)، دراسات في علم اللغة، ط: 09، دار المعارف، مصر، ص: 23.

والمتتبع لمقولات النقد اللساني في الكتابات اللسانية العربية ذات المنحى الوصفي يجدها تنطوي على ثلاث مقولات¹:

✓ الأولى: هي أن النحو العربي متأثر بالمنطق الأرسطي

✓ الثانية: هي أن النحو العربي نحو معياري

✓ الثالثة: النحو العربي خلط المستويات اللغوية

1.2- النحو العربي والمنطق:

من أبرز المآخذ التي وجهها الوصفيون إلى النحو العربي التقليدي أن هذا النحو قد تأثر بالمنطق الأرسطي، حيث أدخل النحاة مفاهيم من المنطق الأرسطي في تحليلهم للغة العربية، فصار النحو يتعامل مع اللغة وكأنها نظام منطقي صارم، وليست ظاهرة اجتماعية حية تتصف بالتغير والتنوع، ما أضفى عليه طابعاً تجريدياً صرفاً، وأبعده عن كونه وصفاً حياً للغة كما تُستعمل، وقد أشار عدد من الباحثين إلى أن النحو العربي خاصة في مراحلها المتأخرة لم يعد قائماً على الملاحظة اللغوية والاستقراء، بل صار خاضعاً لتصنيفات عقلية مستمدة من المنطق الصوري، وقد ذكر الوصفيون بعض مظاهر هذا التأثير، فمنهم من وجد أن هذا التأثير يكمن في التعليل والتقدير والقياس، وهناك من وجده في نظرية الإعراب والعوامل، وكذلك في التقسيم الثلاثي للكلم.

1.1.2- أقسام الكلام:

عرض الوصفيون أقسام الكلام كما تداولها النحاة وانتقدوا قسمتهم الثلاثية المعروفة "اسم، فعل، حرف" بالنظر إلى أصولها المنطقية، وحاولوا في الوقت نفسه أن يستعيضوا عن تلك القسمة بقسمة أخرى على نحو ما نجده في كتاب "من أسرار اللغة" للدكتور إبراهيم أنيس الذي طعن في مطابقة تقسيم القدماء للكلم لمعطيات اللغة العربية بسبب تأثر ذلك التقسيم بمنطق أرسطو، وهذا ما جعل تعريفاتهم ناقصة في نظره، وبعدما عرض لجوانب الخلل في تعريفات القدماء للاسم والفعل والحرف اقترح أسساً جديدة بنى عليها تقسيمه الجديد للكلم، وقد حدد أسس تقسيمه الجديد في:

¹ - ينظر: الهاشمي بكوش فاطمة، (2004م)، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ط: 01، ايتراك

للنشر والتوزيع، مصر، ص: 61.

- المعنى
- الصيغة
- وظيفة اللفظ في الكلام

واعتمادا على هذه الأسس بنى تقسيمه الرباعي الجديد للكلم والذي يضم: الاسم والضمير والفعل والأداة

كما لاحظ تمام حسان وجود خلل واضح في تقسيم القدماء للكلم لذلك ارتأى اقتراح تقسيم جديد؛ وهو تقسيم سباعي يشمل: الاسم والصفة والفعل والضمير والخوالف والظرف والأداة

ولم يشذ رأي عبد الرحمان أيوب عن آراء الوصفيين، فقد ذهب هو الآخر إلى أن النحاة قد تأثروا في تقسيمهم للكلم بنظرية أفلاطون في الموجودات التي قسمها إلى ثلاثة أنواع: "ذوات، أحداث، علاقات"، وعلى هذا الاعتبار نفسه قسم النحاة الكلمة إلى ثلاثة أقسام، فجاءت قسمتهم مطابقة لأجزاء الموجودات كما ذكرتها فلسفة أفلاطون.

2.1.2- نظرية الإعراب والعوامل:

لقد نالت بعض نظريات النحو العربي نقدا لازعا وجريئا من قبل الوصفيين العرب، ومن أبرز هذه النظريات "نظرية الإعراب والعوامل" والتي كانت من المفاهيم النحوية الإجرائية التي أجمع الوصفيون على نقدها في محاولة جادة لتخليص النحو منها بالنظر لمرجعيتها الفلسفية، وقد اجتهد الوصفيون اجتهادات واسعة لدحض أطروحات هذه النظرية واستبدالها بأخرى بدت لهم أفضل لوصف العربية.

فبالنسبة للدكتور إبراهيم أنيس فقد عرض موقفه من نظرية الإعراب في كتابه: "من أسرار اللغة" تحت عنوان كبير "قصة الإعراب"، وكان ملخص رأيه فيها أنه ليس للحركات الإعرابية أي مدلول، بل هي ضرورة صوتية يقتضها الوصل بين الكلمات.

كما طعن الدكتور عبد الرحمان أيوب في نظرية الإعراب استنادا إلى حجة أن القدماء أخذوا نظريتهم من نظرية أفلاطون في الموجودات، كما لم يقبل أيوب أيضا بقول القدماء أن علامات الإعراب أعلام على المعان، وعدّ تبريرهم لإعراب الكلمات فاسدا لأنه يستند إلى علل منطقية فاسدة.

أما الدكتور تمام حسان فقد لاحظ من خلال إعادة قراءته للتراث النحوي العربي أن النحاة العرب قد أعطوا العلامة الإعرابية نصيبا عظيما من العناية ، فبدأ النحاة العرب وكأنه إعراب خالص ؛ وأصبح التحليل النحوي عندهم يقوم على فكرة مركزية هي الإعراب والعوامل التي تقف وراءه، ولذلك فقد ذهب د. تمام حسان إلى أن تحليلات النحاة قاصرة لأنها تعتمد على قرينة واحدة وهي العلامة الإعرابية ، رغم وجود قرائن أخرى تعين على تحليل الجملة ، مؤكدا أن العلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعاني النحوية ، ومن ثم فقد حاول د. تمام حسان من خلال نظريته التي عرفت باسم "نظرية تضافر القرائن " - والتي اقترحها بديلا لنظرية العامل - أن يضع العلامة الإعرابية موضعها الصحيح مع بقية القرائن النحوية ، مفاد هذه النظرية أن العلامة الإعرابية هي نوع واحد من القرائن ومن ثم فإن الاعتماد عليها لا يمثل واقع اللغة ولا يصفها وصفا دقيقا ، بل يجب أن تتضافر مجموعة من القرائن من أجل غاية كبرى تتمثل في كشف اللبس عن المعنى ، وقد قسم تمام حسان القرائن النحوية إلى قرائن معنوية وأخرى لفظية.

● القرائن المعنوية:

والتي يسميها أيضا قرائن التعليق، ويقصد بها أربع قرائن هي:

- قرينة الإسناد
- قرينة التخصيص
- قرينة النسبة
- قرينة التبعية

● القرائن اللفظية:

يحصر تمام حسان القرائن اللفظية في:

- العلامة الإعرابية
- الرتبة
- مبنى الصيغة
- المطابقة

- الربط
- التضام
- الأداة
- النغمة

هذه هي أنواع القرائن التي رأى د. تمام حسان أن تضافرها يغني عن القول بفكرة العامل النحوي التي قال بها النحاة والتي تعتمد على قرينة لفظية واحدة وهي العلامة الإعرابية، فحسب تمام حسان فإن الفاعل ليس فاعلاً لأنه مرفوع فقط بل هو كذلك بتضافر مجموعة من القرائن وهي:

- قرينة الإسناد: (أي العلاقة بين الفعل والفاعل)
- قرينة البنية: (لأنه اسم وليس فعلاً ولا حرفاً)
- قرينة التضام: (لأن كل فعل يستلزم فاعلاً)
- قرينة الرتبة: (لأنه متأخر عن الفعل)
- قرينة العلامة الإعرابية: (لأنه مرفوع).

2.2 - النحو العربي والمعيارية

يرى الوصفيون العرب أن النحو العربي التقليدي قد اتخذ طابعاً معيارياً يهدف إلى تقنين اللغة والحكم على صيغها بالصحة أو الخطأ استناداً إلى نماذج لغوية قديمة، وهذا التوجه -في نظرهم- لا يصف واقع اللغة كما ينطق بها المتكلمون، بل يفرض عليهم نموذجاً مثالياً لا يمثل التنوع اللغوي الحقيقي، سواء على مستوى اللهجات أو على مستوى التطور الطبيعي للغة، حيث يؤكد الوصفيون على أن مهمة النحوي ينبغي أن تكون وصفية تحليلية، تقوم على وصف الظواهر اللغوية كما هي في الاستعمال الفعلي، لا كما ينبغي أن تكون وفق قواعد تقليدية، من هذا المنطلق دعوا إلى إعادة النظر في المنهج النحوي العربي، اعتماداً على أدوات علم اللغة الحديث لتحليل اللغة العربية بدقة وواقعية بعيداً عن الجمود المعياري.

3.2 - النحو العربي والخلط التاريخي والجغرافي:

انتقد الوصفيون العرب الطريقة التي تعامل بها النحاة القدماء مع المدونة اللغوية، لا سيما من حيث تحديدها الزماني والمكاني، معتبرين أن هذا التحديد من الأسباب الرئيسة في

ابتعاد النحو العربي عن واقع اللغة الحي، فقد اعتمد النحاة في تعقيدهم للغة على نصوص محدودة زمنياً، تنتهي إلى ما يعرف بـ "عصر الاحتجاج"، والذي يمتد تقريباً من صدر الإسلام إلى أواخر القرن الثاني هجري، واستبعدوا كل ما بعد ذلك من استعمالات لغوية ولو كانت منتشرة وراسخة بين المتكلمين، كما حصروا المدونة في بيانات جغرافية معينة، إذ اختاروا لهجات قبائل بعينها كقبيلة قيس وتميم وهذيل، ورفضوا الاستشهاد بغيرها بحجة تأثرها بلغات أخرى، وقد رأى الوصفيون أن هذا التحديد أنتج نحواً لا يعبر عن التنوع اللغوي الواقعي، بل يعكس صورة مثالية مصطنعة للغة مبنية عن انتقاء مسبق.

ومن أبرز من تبى هذا الطرح د. إبراهيم أنيس الذي أشار في كتابه: "من أسرار اللغة" إلى أن النحو العربي لم يبنى على ملاحظة حية للغة بل على شواهد محفوظة لا تعبر عن الاستعمال العام، ودعا إلى دراسة اللغة كما هي في الاستعمال لا كما ينبغي أن تكون، كما أكد د. تمام حسان في كتابه: "اللغة العربية معناها ومبناها" أن قصر المدونة على نصوص قديمة قبلية والتغافل عن اللهجات الحديثة جعل النحو علماً منعزلاً عن الاستعمال الفعلي للغة.

من هذا المنطلق دعا هؤلاء الباحثون إلى إعادة بناء المدونة اللغوية على أسس وصفية حديثة تشمل مختلف الظواهر اللغوية المتحققة في أزمنة وبيئات مختلفة، معتبرين أن اللغة ظاهرة اجتماعية متغيرة لا يمكن تقييدها بإطار (زماني ومكاني) ضيق.

3- الكتابة النقدية الوصفية في ضوء النقد اللساني:

إن الزاوية المنهجية التي نظر من خلالها الوصفيون العرب إلى النحو العربي تعرضت بدورها لكثير من النقد؛ حيث ظهرت كتابة لسانية عربية نقدية تتخذ من الخطاب اللساني العربي موضوعاً لها بغرض النظر التقويبي لتجربة اللسانيات في الثقافة العربية، وقد عنيت هذه الكتابات بنقد الكتابة النقدية النحوية الوصفية مجسدة ما عرف بـ "نقد النقد"، ومن أبرز هذه المؤلفات:

1. كتاب اللسانيات العربية الحديثة - دراسة نقدية في المصادر والأسس

النظرية والمنهجية - للدكتور مصطفى غلفان

2. كتاب اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة – دراسة تحليلية نقدية في

قضايا التلقي وإشكالاته- للدكتور حافظ إسماعيل علوي

فبالنسبة للدكتور مصطفى غلفان فقد كان ملخص رأيه أن النقد الذي وجهه الوصفيون العرب للتراث النحوي العربي لم يكن نقدا موضوعيا وإنما كان تعصبا للمنهج الوصفي ، ومحاكاة للنقد الذي وجهه اللسانيون الغربيون لنحوهم التقليدي أما بخصوص البدائل التي اقترحها الوصفيون فيرى مصطفى غلفان أنها لم تخرج في إطارها العام عما كان عند القدماء ، وأن تحليلاتهم جاءت محملة بمصطلحات و مفاهيم قديمة ؛ حيث تلجأ الكتابة اللسانية الوصفية العربية للتراث اللغوي العربي مستلهمة منه جملة من المفاهيم والمصطلحات بل حتى بعض التصورات، وهذا ما دفع الدكتور مصطفى غلفان إلى القول بأن الكتابات اللسانية الوصفية العربية تجسد "موقفا متناقضا من التراث " ؛ فرغم انتقادها الشديد لهذا التراث فهي تعود إليه باستمرار لتستلهم منه المفاهيم والمصطلحات و طرق التحيل، وانتهى الدكتور مصطفى غلفان إلى القول بأن الكتابات اللسانية الوصفية العربية لم تتمكن من تقديم البديل الكفيل بتجاوز التحليل اللغوي العربي القديم .

أما الدكتور حافظ إسماعيل علوي فقد عرض رأيه في كتابه المذكور تحت عنوان " اللسانيات الوصفية: محاولة للتقييم"، وقد انطلق في طرحه من السؤال التالي: هل وُفق الوصفيون في تقويم التراث النحوي العربي باعتماد المنهج الوصفي؟ وقد حصر رأيه في جملة من النقاط لعل أبرزها¹:

1. يرى أن نقد الوصفيين للنحو العربي ما هو إلا مظهر من مظاهر تأثرهم بالوصفيين الغربيين.

2. يرى أن الوصفيين ركزوا في نقدهم على جوانب محددة من التراث النحوي، ثم رموا هذا التراث بأحكام عامة،

3. يرى أن الوصفيين يجتزئون من كتب التراث ما يخدم نظرتهم.

¹ - ينظر: علوي حافظ إسماعيل، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة –دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته -، مرجع سابق، ص: 252-253-254.

4. كما ذهب إلى أن مآخذ الوصفين على النحو العربي ليست جديدة، بل كانت موجودة عند القدماء فجوانب النقد التي عابوا بها القسمة الثلاثية للكلم عند النحاة، فهي مما اهتدى إليه بعض النحاة أيضا، فبالرجوع إلى كتاب "الإيضاح في علل النحو" للزجاجي (337هـ) نجده نبه إلى قصور بعض المقاييس اللفظية على استيعاب كافة الأقسام، كما أشارد. علوي إلى أن انتقادات الوصفين لنظرية العامل في التراث النحوي العربي ليست جديدة حيث عرفت مسيرة الدرس النحوي رفض فكرة العامل رفضا لا يختلف عما يبديه الوصفيون من نقد ، ومن أشهر من عرفوا بنقدهم لهذه النظرية : "ابن مضاء القرطبي " 592هـ " في كتابه: "الرد على النحاة"، حيث رفض نظرية العامل رفضا قاطعا و دعا إلى تخليص النحو العربي منها.

علاوة على ما سبق فقد لاحظ د. علوي أن الوصفين لم يبتعدوا عن حدود الأفكار التي صاحبت حركة الإحياء والتيسير في الثقافة العربية، فقد اهتم الميسرون بضرورة تيسير النحو، وذلك بتخليصه من الشوائب الفلسفية، ومن الذين حملوا لواء هذه الدعوة "إبراهيم مصطفى" في كتابه "إحياء النحو" وتلميذه "مهدي المخزومي" في كتابه " النحو العربي نقد وتوجيه ".

الخاتمة:

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى تسجيل النتائج التالية:

- 1- لقد اتخذ الوصفيون العرب من نقد النظرية النحوية العربية مقدمة منهجية لخطابهم اللساني الجديد ومسوغا لشرعية وجوده وفاصلا ضروريا للانتقال إلى مرحلة تطبيق المناهج الحديثة على اللغة العربية.
- 2- لقد قام نقد الوصفين العرب للنحو العربي على المنطلقات والأسس النظرية المنهجية التي اعتمدها اللسانيون الغربيون في نقدهم لنحوهم التقليدي.
- 3- إن نقد الوصفين للنحو العربي لم يكن قائما على رؤية منهجية شاملة للفكر اللغوي العربي القديم وإنما تعلق الأمر بملاحظات تحاكي في حالات عديدة ما ورد في الفكر الغربي من نقد للنحو الغربي التقليدي.

- 4- إن الكتابة اللسانية الوصفية العربية وقفت عند حدود النقد، دون أن تتمكن من تقديم نظرية لسانية بديلة للنحو العربي القديم.
- 5- إن الكتابة اللسانية الوصفية العربية عجزت عن دحض الأطروحات اللغوية العربية القديمة؛ بحيث ظلت الأفكار اللغوية العربية القديمة هي السائدة، واستمر الفكر العربي القديم مصدرا أساسيا لدراسة اللغة العربية، كما استمر هذا الفكر مصدرا للكتابات اللسانية الوصفية العربية نفسها، بحيث اعتمدت تصورات القدماء ومصطلحاتهم ومفاهيمهم في أسلوب حديث.
- وختام القول إن مجمل ما أخذته اللسانيات البنيوية الوصفية على الأنحاء التقليدية الغربية لا ينطبق بالضرورة على النحو العربي لاختلاف المرجعيتين الفكريتين ، حيث أن الاختلاف بين التفكير اللغوي العربي القديم و التفكير اللساني الغربي الحديث هو أصلا اختلاف إبستمولوجي ، ومن ثم فعلى اللساني العربي أن ينطلق من أن الفكرين نمطان مختلفان ويؤكد أن اختياره لهذا النمط أو ذاك له دوافع علمية صرفة ، فتقديس مقولات الأولين أو التبني المطلق للمناهج اللسانية الغربية يجعل الباحث اللساني - كما قال عنه عبد السلام المسدي - إما ناقل لفكر غربي ، وإما ناشر لفكر عربي قديم فلا النقل في الحالة الأولى ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكرا عربيا، لأن في الحالة الأولى سنفقد عنصر العربي وفي الحالة الثانية سنفقد عنصر المعاصرة ؛ وعليه فإن الموقف الأكثر ملاءمة لوضعنا اللغوي الراهن يجب أن يؤخذ بعد التمحيص أيا كان المصدر والمنطلق ، سواء كان النموذج المعتمد عربيا أم غربيا فإنه يتعين نقده في أسسه ومبادئه العامة وفهمه في إطاره الفكري .

مصادر البحث ومراجعته:

1. الهاشي بكوش فاطمة، (2004م)، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث - دراسة في النشاط اللساني العربي -، إيتراك للنشر والتوزيع، مصر.
2. بشر كمال، (1986م)، دراسات في علم اللغة، ط: 09، دار المعارف، مصر.
3. تمام حسان، (2000م)، اللغة بين المعيارية والوصفية، ط: 04، عالم الكتب، القاهرة.
4. علوي حافظ إسماعيل، (2009م)، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة - دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته-، ط: 01، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان.
5. عبد الرحمان أيوب، (1957 م)، دراسات نقدية في النحو العربي، ط: 01، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة.
6. غلفان مصطفى، (د.ت)، اللسانيات العربية الحديثة - دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية - جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب.

